موقف الإمام عبد الحميد ابن باديس من قضية الخلافة العثمانية في أيامها الأخيرة.. ومن الكماليين...

الأستاذ الدكتور محمد بن سمينة *

تحاول هذه الكلمة أن تقترب من موقف الإمام ابن باديس من مسألة الخلافة العثمانية في صورتها الأخيرة وما انتهت إليه من انحسار مدّها وانقضاء حكمها وانطفاء شعلتها على أيدي الكماليين...

ويتركّز النقاش لإجلاء ذلك في هذه المحاور:

1. مدخل
2. موقف الإمام ابن باديس من مشروعية الخلافة العثمانية في أيامها الأخيرة.
3. ما بين نموذج الخلافة وجماعة المسلمين.
4. موقف الإمام من مصطفى كمال.
5. تطور وتعليل.
6. الخلاصة.

أولاً: المدخل

لقد انتهت مقاليد الحكم في الخلافة الإسلامية ما بين بداية عصر الضعف إلى العصر الحديث (656ـ1343هـ/1258ـ1924م) إلى الأتراك العثمانيين الذين نصّبوا خلافتهم في عاصمة البلاد (إسلام بول) وامتد سلطان إمبراطوريتهم إلى أمصار عديدة في القارات الثلاث: (آسيا، أوربا

---

* جامعة بن يوسف بن خدة الجزائر.

وإفريقيا) وأصبحت أقطار عديدة من العالم العربي الإسلامي تحت رايتهم، فصانوا في أوّل عهدهم حياض الإسلام وذادوا عن حرمة المسلمين ونشروا ألوية الحق والعلم والعدل والإحسان بين جميع مَن نزلوا بديارهم على اختلاف أجناسهم ومللهم وكان الغرب ينظر إليهم ـــ استمرارًا للحروب الصليبية ـــ على أنهم قوة إسلامية عظمى ناهضة، فكان لذلك يتآمر عليهم ويكيد لهم ويعمل جاهدًا على نشر عوامل الضعف والتخلف بينهم ولم تلبث تلك المحاولات أن بلغت أهدافها، فأتت على خلافتهم، فكان سقوطها فاجعة عظمى اهتزّ لها المسلمون في مختلف أرجاء المعمورة وأثارت قرائح المفكرين والأدباء وكتبوا فيها أعمالا كثيرة، محلّلين الأسباب مستخلصين النتائج واضطربت حولها مواقفهم وآراؤهم، ما بين متحسر عليها ساع إلى إرجاعها وبين مستبشر بإلغائها رافض لإعادتها ويمثّل هذا الاتجاه الأخير معظم المصلحين في تركيا وفي سائر أقطار العالم الإسلامي. نذكر من بين هؤلاء: (موسى صبري، عبد الرحمن الكواكبي، محمد رشيد رضا وغيرهم ...)، فأين يقف ابن باديس من هذا الموضوع؟

ثانيا : موقف ابن باديس من مشروعية الخلافة العثمانية في صورتها الأخيرة

لقد خصّ الإمام ابن باديس موضوع الخلافة العثمانية وما اكتنفها من أحداث وملابسات بأربع مقالات، ممّا وصلنا من نتاجه: اثنتان منها، نشرهما تباعًا بعد إلغاء هذه الخلافة مباشرة[1]. أما الثالثة[2] والرابعة[3] فقد نشرهما سنة 1938، وقد تمحور حديثه في هذه الأعمال الأربعة حول قضيتين اثنتين : تمركزت القضية الأولى حول مشروعية الخلافة العثمانية في صورتها الأخيرة ودار الحديث في القضية الثانية حول تأسيس جماعة

1. انظر: آثار الإمام ابن باديس،20/6، 25.
2. انظر: المصدر السابق،382/5.
3. انظر: ابن باديس حياته وآثاره،213/4.

المسلمين بديلا عن الخلافة الملغاة ونذكر أن أهم ما دار عليه النقاش في المقالين الأولين هو مفهوم الكاتب للخلافة الإسلامية وموقفه من الخلافة العثمانية وجنايات الكماليين عليها وعلى رجالها وعلى الإسلام والمسلمين وما انتهت إليه في صورتها الأخيرة، ثم حادثة سقوطها وما أعقب ذلك من الخلافة العثمانية.

في عهدها الأول كانت قائمة على تعاليم الدِّين الإسلامي غيورة عليه، قوية الأركان مهابة الجانب، محاولات مشبوهة من الأجانب وأعوانهم لإرجاعها وما يجب على المسلمين أن يقوموا به أمام ذلك فهو يرى كمعظم أعلام الإصلاح أنها جامعة للمسلمين في أمر دينهم ودنياهم، فكانت بذلك كما حدّدها الشرع واجتمع عليه رأي علماء الإسلام ه«رئاسة عامة في أمر الدِّين والدنيا خلافة عن النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام»[1] وقد كان لهذه الخلافة يوم أن كانت تقوم على هذه الأسس وتنهض بهذه المقاصد، المكانة المرموقة في نفوس المسلمين والفعالية البالغة في تسيير شؤون حياتهم والفضل الكبير على الإنسانية قاطبة، بما نشرت بين أبنائها من مساواة وعدل وإحسان، فكان الشيخ كأمثاله من أعلام النهضة الإسلامية يتعاطف معها ويغار عليها، ويحرص على بقائها بالرغم ممّا آلت إليه من ضعف في صورتها الأخيرة لدورها في المحافظة على تضامن المسلمين وحماية وحدتهم وتماسك موقفهم أمام ما يهدّدهم من أطماع الغرب المتربص بهم ويلتقي الكاتب في هذا التوجه مع السيد (رشيد رضا)[2]، بيد أن هذه الخلافة قد آلت في عهدها الأخير إلى حال من الضعف الخطير: خلفاء قابعون في مقصوراتهم، قانعون بما يأتي إليهم من حيث لا يدرون مصدره، شيوخ يتملّقون السلطة بقدر ما يرتزقون، طرقيون غلب عليهم الجهل والجمود، أمّة إرادتها مشلولة وطاقاتها معطّلة وقدراتها

1. انظر آثار الإمام 25/6 نقلا عن سعد الدين التفتزاني في مقاصده.
2. انظر محمد صالح المراكشي: تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار،ص. 142.

مهدورة[1]. فجاء الكماليون فزادوا في تعميق هوة هذا الضعف وانحدروا بالأمّة إلى الدرك الأسفل من التخلف، بانحرافهم بالخلافة عن مقاصدها الشرعية وجعلها «خلافة روحية لا سلطان لها في سياسة الأمّة وحكومتها »[2].

والأمر في الخلافة كما نصّ عليه الشرع، لا يكون إلاّ في ناحيتين: (حراسة الدِّين وسياسة الدنيا)[3]، ولهذا كانت بدعتهم في الخلافة «باطلة من أصلها»[4] ثم لم يلبثوا، أن أقدموا على إلغاء الخلافة نهائيًا وذلك في الرابع من مارس1924. فقضوا بذلك على «ركن عظيم من أركان النهضة، وسبب قوي من أسباب الاتحاد»[4]. فأعقب هذه الفاجعة، تحّرك عدّة أطراف في أكثر من بلد إسلامي للنظر في أمر المسلمين كان من أهمها دعوة علماء الأزهر لعقد مؤتمر إسلامي للفصل في خطة الخلافة «وإرجاعها إلى وضعها الشرعي[5]».

وقد علّق ابن باديس بعض الرجاء على هذه الدعوة، لإدراكه أن بدعة الكماليين، ليست من الدِّين وأن هذا المؤتمر يمكن أن يرجع الخلافة إلى وجودها الشرعي، ولكنه سرعان ما تبيّن أن الغرب يقف من وراء ذلك بهدف تنصيب خليفة صوري –يفتن به المسلمين– ويتخذ منه أداة طيّعة يحرّكها متى يشاء؟ وكيف يشاء؟ لخدمة مصالحه وضرب مصالح المسلمين ووحدتهم، فتخلّى الشيخ عن ذلك الرجاء، وانطفأت شعلته في نفسه ورفع صوته عاليًا بأن «لا خلافة اليوم» [6] رافضًا «كل خليفة تشتم منه رائحة الأجنبي كائنًا مَن كان» [7]

---

1. انظر "ابن باديس حياته وآثاره":4/214-215
2. "آثار الإمام":6/26-27.
3. نفس المرجع السابق.
4. نفس المرجع السابق.
5 نفس المرجع السابق.
6. "آثار الإمام":6/26-27-22-23
7. نفس المرجع السابق.

حقًا لقد كان الامتحان عسيرًا وكانت الفتنة عظيمة في وسط المسلمين، إلاّ أن ذلك لم يؤد بابن باديس إلى اليأس ولم يزعزع ثقته بالمستقبل وإنّما اتخذ من ذلك موضوعًا للعظة وللعبرة، فكان له من ذلك من الحوافز ما حمله على التفكير فيما يخفّف على إخوانه المسلمين من أعباء هذه المحنة ويساعدهم على الخروج منها سالمين. وكان على رأس ما انتهى إليه في معالجة هذه الأزمة، أن تستمر كل أمّة مسلمة في السير في طريق نهضتها، مستعينة في ذلك بعقد أواصر التعاون والتعاضد مع إخوانها وأن لا يكون سقوط الخلافة مضعفًا لعزائم المسلمين في السعي، معطّلا لإرادتهم في الجهاد ما دام الأساس الذي تقوم عليه هذه الخلافة الملغاة وهو الإسلام باقيًا ما بقي الزمان، فليعكفوا إذن على الاغتراف من هذا المصدر الخالد فسيهديهم ذلك إلى الطريق القويم، وسيشفيهم من كل داء عقيم[1].

ثالثا : ما بين الخلافة وجماعة المسلمين

وكان يمكن أن يكون الكاتب بهذا الذي خلص إليه من رأي في الخلافة وما اكتنفها من أحداث وملابسات بعد إلغائها، قد طوى صفحة الحديث عنها نهائيًا، وقال قولته الأخيرة فيها، ولكنه رجع إلى الحديث عنها من جديد، بعد هذا الانقطاع الطويل، الذي دام حوالي خمس عشرة (15) سنة، فما هي الأسباب التي دعته إلى ذلك الغياب؟ وما هي العوامل التي دعته إلى هذه العودة؟ وماذا قال في الموضوع؟ فهل كرّر ما كان قد قرّره سابقًا من أفكار فيه، أم أنه أتى بشيء جديد؟

لقد كتب ابن باديس كما سبقت الإشارة إلى ذلك سنة 1938 مقالين اثنين، فكان الأول بعنوان (الخلافة وجماعة المسلمين)[2] وليس فيه ما يبرز بصورة واضحة العوامل التي ألجأت الشيخ إلى العودة إلى الموضوع، بعد

1. "آثار الإمام" : 6 / 23.
2. "آثار الإمام":382/5.

هذا الغياب الطويل ويمكن أن نستنتج من بعض ملامح السياق في المقال، أن يكون من بين الدوافع إلى كتابته، ما استجد في الساحة السياسية العربية من محاولات تستهدف تنصيب خلافة جديدة للمسلمين وكان الشيخ قد قال رأيه النهائي كما مرّ معنا في هذه القضية من زمان، بأن «لا خلافة ولا خليفة اليوم»[1].

وقد ظلّ عند رأيه في هذا الموضوع، متمسكًا به ثابتًا عليه وقد كتب هذا المقال لا لينقض أفكاره السابقة، وإنّما ليؤكد من جديد، ما أقرّه من قبل في هذا الصدد، من أن الخلافة العثمانية على الشاكلة التي انتهت إليها، على أيدي الخلفاء المتأخرين، لم تكن على الصورة الشرعية وإنّما أصبحت رمزًا خياليًا مجرّدًا من كل سمات الخلافة الحقّة المنصوص عليها في الشرع، ولذلك فإن الكماليين عندما ألغوها، لم يلغوها «بمعناها الإسلامي وإنّما ألغوا نظامًا حكوميًا خاصًا بهم وأزالوا رمزًا خياليًا، فتن به المسلمون لغير جدوى»[2].

وإن الكاتب لا يعجب من «تلك الدول الغربية المتعصبة» في محاولاتها الفاشلة، المتكررة لبعث شبح تلك الخلافة الشكلية، لفتنة المسلمين به من جديد لأن الغربيين حينما يقومون بذلك إنّما ينهضون بواجبهم نحو أمّتهم، لما في ذلك من نفع في تمديد فترة سبات المسلمين وإطالة عمر تخلّفهم، وإنّما الكاتب يعجب أكثر ما يعجب ممّن يسمون أنفسهم علماء الإسلام وممّن نصّبوا أنفسهم أمراء على تلك الأمّة.

وكيف لا يعجب وهو يرى هؤلاء السادة يتدافعون بالمناكب ليكونوا أعوانًا للغرب فيما يحاول من فتنة إخوانهم المسلمين بالخلافة والخليفة، فيحاولون أن ينفخوا روح الحياة في حركة هامدة طال عليها الأمد وهي

---

1. م.س:27/6.
2. "آثار الإمام":382/5.

على تلك الحال من الاحتضار «كفى غرورًا وانخداعًا، إن الأمم الإسلامية اليوم- حتّى المستعبدة منها- أصبحت لا تخدعها هذه التهاويل ولو جاءتها من تحت الجبب والعمائم»[1].

وانتهى الشيخ في هذا المقال من النظر في أمر الخلافة وما اكتنفه من بلبلة واضطراب في الأفكار بين كثير من المفكرين والكتاب[2] إلى رأي سديد يكون من شأنه تجنيب المسلمين خطورة ما أراد الغرب أن يفتنهم به ويقدّم لهم الكاتب البديل في الوقت ذاته، بدعوتهم إلى إحياء ما كان عليه سلفهم الصالح من تلك السنّة الحميدة القاضية بالرجوع في أمورهم العامة والخاصة إلى أهل العلم والخبرة من جماعة المسلمين وأن يصدروا في ذلك عن تشاور ورضًى فيما فيه خير وصلاح أمر جميعهم «فعلى الأمم الإسلامية جمعاء أن تسعى لتكون هذه الجماعة من أنفسها بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها[3]». وقد راسل برأيه هذا فضيلة شيخ (جامع الأزهر الشريف) بمصر، مؤكدًا له ولمن يشايعه في رأيه من أمر الخلافة، بأن المسلمين لن يرجعوا -إن شاء الله- إلى زمن الدجل السياسي والدروشة الصوفية، وإن تلك الخلافة الشكلية لن يعود لها مكان في حياتهم، وأنهم سينتهون بحول الله إلى هذا الرأي الجامع في الموضوع[4]، ولم يكن الشيخ بهذا الموقف من الخلافة العثمانية يدعو إلى فصل الإسلام عن النظام السياسي، كما نادى بذلك بعض الدارسين، يأتي في مقدمتهم: الشيخ علي عبد الرزاق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم"، وإنما كان ينطلق في ذلك من إيمانه الراسخ بسلبية تلك الخلافة على الصورة التي انتهت إليها ويعبر في الوقت ذاته عن

---

1. آثار الإمام:383/5.
2. د/ فهمي جدعان "أسس التقدم عند مفكري الإسلام"... ص341.
3. آثار الإمام:383/5-384.
4. نشر الكتاب بالقاهرة سنة:1342هـ/1925م.

فكرته التي قضى حياته يجاهد من أجلها وهي إبعاد المحتلين عن شؤون الإسلام. وأما مقاله الرابع والأخير والمتصل بالخلافة، فقد كتبه على إثر وفاة مصطفى كمال، فماذا قال فيه؟ وهل أتى فيه بجديد في الموضوع؟ لم يعد الشيخ في هذا المقال إلى تكرار رأيه في الخلافة، فقد خلص في ذلك إلى ما انتهى إليه فيما كتبه سنة 1924 وفيما كرّره في مقاله السابق الذي لم يمض على نشره إلاّ أشهر قلائل ولذا يكاد يقتصر حديثه في هذا العمل حول تعزية تركيا الشقيقة، بوفاة أحد رجالها العظام والإشارة إلى بعض ما قام به، من آمال ليس من أجل تحرير تركيا فحسب وإنّما من أجل تحرير الشرق الإسلامي كله[1]، فمَن هو مصطفى كمال وكيف كان موقف الشيخ منه؟

رابعا : موقف الإمام من مصطفى كمال

كان العالم السياسي بقيادة الخلافة العثمانية قد انتهى على عتبة القرن العشرين إلى حال مزرية في جميع مظاهر الحياة: تخلّف عام وجمود شامل وتشرذم مذهل. واندلعت الحرب العالمية الأولى ودخلتها تركيا وخرجت منها مهيضة الجناح مهزومة، تتنازعها من الخارج أطماع دول الغرب لتقتسم أطرافها (بلدان العالم العربي) فيما بينها (اتفاقية سايكس-بيكو)، وتنخر جسمها من الداخل والخارج أدواء الجهل والجمود والجبرية: خليفة مقهور وجيش موتور وقد سطع في هذه الأثناء من بين هذه الغيوم الكثيفة نجم مصطفى كمال (1880 ــ 1938) ملوّحًا براية التغيير والتجديد، فتحدّى الغرب وحرّر تركيا من قبضته وانتصر على اليونان في (إزمير)

1. ابن باديس حياته وآثاره:213/4 وما بعدها.

سنة 1919 وعقد مع الغرب من موقف قوة معاهدة (لوزان) 1923[1]. فاهتز العالم الإسلامي لهذه الانتصارات وتعالت أصوات أكثرية المسلمين هاتفة بحياة الغازي (أتاتورك) مستبشرة به، داعية له باطراد المزيد في هذه النجاحات وكان بعض أعلام حركة النهضة الإسلامية من المفكرين والكتاب قد ارتاب في بعض تصرفاته المشبوهة ضدّ الخلافة، بقيامه بتجريدها من السلطة السياسية ومن مواقفه إزاء الإسلام، بحصر حركة الدين في مجال محدود (العبادات فقط) ولكنهم رأوا أن يمهلوه وهو يخوض معاركه ضدّ الطامعين، استكمالاً لمشروعه الإصلاحي التحرري[2]. وفي هذه الفترة التي كان الناس أثناءها مبهورين بانتصارات الغازي، مشغولين بتبرير تحركاته المريبة، أقدم (الغازي) على مفاجأته الجميع، بإلغائه الخلافة وتنحية الدين الإسلامي من حياة الأتراك[3]، فانقلبت الفرحة إلى حزن وتحوّل التأييد إلى تنديد وأخذ الذين كانوا بالأمس يردّدون الأهازيج، طربًا بأعماله ويتبادلون التهاني ابتهاجا بانتصاراته، يتبرؤون اليوم من صنيعه[4]. ولم يكن الجزائريون في موقفهم من الرجل بدعًا من إخوانهم في سائر بلاد العالم الإسلامي، فقد وقعوا في مثل ما وقع فيه غيرهم من ارتباك واضطراب، لقد انخدعوا هم أيضًا به في أوّل عهده وابتهجوا بمبادراته وتغاضوا عن هفواته حرصًا منهم على تضامن المسلمين ووحدتهم ولكنهم انقلبوا عليه وندّدوا به حينما ألغى الخلافة وتنكّر للإسلام. وكان ابن باديس كغيره من الأدباء الجزائريين قد عني بأمر الخلافة وتأثر بإلغائها،

---

1. انظر د/محمد محمد حسين – "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر":29/2،37، وانظر أحمد شوقي "الشوقيات":34/2.
2. انظر أنور الجندي " العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي":ص137.
3. انظر آثار الإمام:93/3.
4. انظر د/محمد ناصر: "المقالة الصحفية الجزائرية":39/1– 178.

وكان له موقف من الكماليين الذين كانوا من وراء ذلك وقد سبق أن عرفنا موقفه من الخلافة، فماذا عن موقفه من الكماليين؟

انطلق الإمام في هذا الموقف كدأبه في جميع مواقفه من نظرة موضوعية تقوم على تقدير قيمة الرجال من خلال أعمالهم ومبادراتهم وليس انطلاقًا من شخوصهم وانتمائهم ويمكن أن يندرج الحديث عن ذلك في محورين اثنين:

1. كان الكاتب –كغيره من أعلام الإصلاح والفكر والأدب في المشرق[1]– قد مال في أول الأمر إلى تأييد الكماليين وعلّق بعض الرجاء على زعيمهم (مصطفى كمال) ونوّه به في معرض إشادته بالسلطان (عبد العزيز آل سعود)، وذلك لما أبداه من رغبة في التجديد والتغيير، أمام ما كانت ترزح تحت نيره الأمّة من احتلال وما انحدرت إليه الخلافة من درك، وما انتهى إليه أمر الخليفة من هوان «فلئن والينا الكماليين (....)، فلأنهم قاموا يذبّون عن حمى الخلافة وينتشلون أمّة إسلامية عظيمة من مخالب الظالمين»[2].

2. تبرأ ابن باديس من الكماليين وندّد بجناياتهم لما كشفوا القناع عن حقيقتهم وقاموا بإلغاء الخلافة وتنكّروا للإسلام وجاهروا بميولهم العلمانية اللادينية «ولئن تبرأنا منهم اليوم وعاديناهم فلأنهم تبرّؤوا من الدِّين وخلعوا خليفة المسلمين» [3] وهو يشبه في موقفه هذا بانتقاله فيه من التأييد إلى التنديد، السيد رشيد رضا في الموضوع نفسه[4] ولقد ألمع الإمام إلى أنه لم يكن يجهل عنهم من قبل هذه الميولات المشبوهة ولكنه كان يعمد إلى الإغضاء عن ذلك إلى حين، رجاء في عدولهم وحرصًا

---

1. انظر أنور الجندي – العالم الإسلامي:ص42.
2. انظر آثار الإمام:20/6.
3. انظر م.س:95/3.
4. انظر آثار الإمام:123/3.

منه على تضافر المسلمين ووحدتهم. ولمّا شاهد من زيغ الكماليين وتأكّد لديه أنّهم ليسوا «راجعين عن غيّهم» حمل عليهم وتبرّأ منهم. ويمكن القول إن معظم المفكرين المسلمين المعاصرين قد انخدع بالكماليين في أول عهدهم وكان موقفه منهم ما بين هذين الحالين في مرحلتين اثنتين: ما قبل إلغاء الخلافة وما بعد إلغائها.

ولعل من أقرب هؤلاء المفكرين إلى ابن باديس في هذا الموضوع السيد (محمد رشيد رضا) الذي أيّد الكماليين في أوّل أمرهم، ثم تخلّى عنهم لما شاهد انحرافاتهم.

وقد خلص الشيخ عبد الحميد إلى هذا الرأي في الكماليين بعد إلغائهم الخلافة و لم يعد إلى الحديث عنهم منذ ذلك الحين لا مؤيّدًا ولا منددًا، إلى أن حلّت 1938، فكتب مقالين في الموضوع -كما سبقت الإشارة إلى ذلك- كان أحدهما قد كتبه في حياة (مصطفى كمال) رجع فيه إلى تقرير رأيه في الخلافة وأما ثانيهما فقد كتبه على إثر وفاته تعزية لتركيا، فلم يعد فيه إلى رأيه السابق في الكماليين وإنّما وقف فيه منهم موقفًا مغايرًا لم يلتزم فيه حدّ السكوت عن جناياتهم فحسب وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك بقيامه بالبحث عمّا يبرّر به سقطات (مصطفى كمال)، إن الشيخ يرى أن هذا الزعيم مهما يكن قد قام به من هفوات، فقد كان له مقابل ذلك جملة من المواقف التي لا يرقى إلى النهوض بها إلاّ أمثاله من العظماء، فهو الذي أحيَا الشرق الإسلامي بعد أن كاد يموت وهو الذي «أوقف الغرب المغير عند حدّه وكبح من جماحه وكسّر من غلوائه وبعث في الشرق الإسلامي أمله وضرب له المثل العالي في المقاومة والتضحية فنهض يكافح ويجاهد، فلم يكن مصطفى محيي تركيا وحدها، بل محيي الشرق الإسلامي كلّه[1]»

---

1. انظر آثار الإمام:123/3.

وأمّا عن موقفه إزاء الإسلام على وجه الخصوص « فهذه هي الناحية الوحيدة من نواحي عظمته التي ينقبض لها قلب الإسلام ويقف متأسفا»[1]. وهو مع ذلك لا يحمّله المسؤولية كاملة في هذا الموضوع وإنّما يحمل النصيب الأوفر منها مَن كانوا يمثلون الإسلام ويزعمون أنّهم يحكمون الناس باسمه وهم «خليفة المسلمين، شيخ إسلام المسلمين ومَن معه من علماء الدِّين، شيوخ الطرقية المتصوفون»[2] فهؤلاء هم المسؤولون المباشرون الذين أدّوا بجمودهم وقعودهم بالخلافة والأمّة إلى الضعف والتخلف[3] ومن ثَمّ دفعوا مصطفى كمال إلى القيام برد فعل عنيف أدّى به إلى شيء من الغلو والتطرف وهو مع ذلك لم يثر في نظر الكاتب عن الإسلام «وإنّما ثار على هؤلاء الذين يسمون بالمسلمين»[4]. وأمّا قيامه بترجمة القرآن الكريم إلى التركية – وهذا العمل في نظر الجمهور غير شرعي– ومع ذلك يبرّره ابن باديس بذهابه إلى أن مصطفى كمال ما قام به إلاّ من أجل غاية نبيلة تتمثل في تيسير السبل أمام الأمّة التركية «لتأخذ الإسلام من معدنه وتستقيه من نبعه[5]»، أما إلغاؤه الأحكام الشرعية من حياة الأتراك فليس –في نظر ابن باديس– «مسؤولاً في ذلك وحده[6]» وهو وإن حرم قومه من ذلك، فقد أعاد لهم حريتهم وهذا ما لا يسهل استرجاعه لو ضاع[7]» أمّا تلك الأحكام فيمكنهم استرجاعها متَى شاؤوا، وكيفما شاؤوا.

---

1. انظر أنور الجندي: "العالم الإسلامي والاستعمار السياسي..."، ص50.
2. انظر آثار الإمام :124/3.
3. انظر د/محمد سعيد رمضان البوطي : أحسن الحديث ص201.
4. انظر آثار الإمام:123/3-124.
5. انظر آثار الإمام:123/3-124.
6. انظر آثار الإمام: 3/ 123-124.
7. انظر آثار الإمام: 3/ 123-124.

يبدو أن الشيخ قد غالى في هذه الآراء ويمكن أن يتحقّق من ذلك من ينعم النظر في هذه الأسئلة: كيف يكون حال أمّة في دنياها، إذا كان أفرادها لا يهتدون في ذلك بتعاليم دينها؟ وكيف يستطعم الناس مذاق هذه الحرية العرجاء إذا لم يكونوا أحرارًا في أمر دينهم؟

وقد أكّدت تجارب التاريخ أن أممًا كثيرة استرجعت حريتها في شؤون دنياها، ولكنّها لم تسترجع سلطان دينها على دنياها، فلَم تستمتع لذلك بتلك الحرية المسترجعة ولم تستروح بوارف ظلالها، ذلك لأن الأمّة التي تفصل بين وجوه حياتها وبين تعاليم دينها، ليس من السهل أن تصل إلى غاياتها، ببلوغ أسباب العزة والسيادة وهي وإن وصلت إلى شيء من ذلك ، فإنها لا تهنأ به على الوجه الذي تريد ولا تلبث أن تجرّدها الأيام منه أو تسلّط عليها من الأدواء ما يعكر عليها صفو الاستمتاع به.

خامسا: تطوّر وتعليل

ترى ما الّذي حمل الشيخ إلى هذه النقلة من حال إلى حال؟ وما الذي أذهله عمّا كان يعتقده ويدعو إليه من تحرّر الأمّة من الهيمنة الأجنبية، إنما يجب أن يتقدمه بتحريرها من العلل الروحية ومن أدوائها الفكرية؟ وهل يمكن القول إن الكاتب بهذه النقلة قد ناقض نفسه بالنظر إلى ما كان له من مواقف في الكماليين من قبل؟ وكيف يمكن التوفيق بين ما كتبه في هؤلاء 1924، وهو يعدّد جناياتهم على الإسلام والمسلمين من مثل قوله: «لم يكتف القوم برفض الدِّين عن الدولة وتعطيل أحكامه بين الناس جملة بل أخذوا في استئصاله من الأمة التركية[1]». وبين ما كتبه 1938، منوّهًا بأيادي زعيمهم (مصطفى كمال) على الإسلام، بتمكينه تركيا «من إقامة شعائره، فكانت مظاهر الإسلام في مساجده ومواسمه تتزايد في

---

1. م.س:22/6.

الظهور عامًا بعد عام»[1]. ألاّ يصوّر هذان القولان موقفين مختلفين؟ أو ليس في ذلك شيء من المفارقة؟ وبم يمكن تعليل ذلك؟

إن الذي ينعم النظر في ملابسات هذه الإشكالية ويتعمّق التحليل في حيثياتها، قد يصل إلى أن أيّ شيء ممّا سبق لم يكن من الحوافز التي دفعت ابن باديس إلى هذا الموقف الجديد، وإنما دفعه إلى ذلك جملة من العوامل الموضوعية والذاتية النابعة من نفس الشيخ، ومن عمق وعيه بمعطيات الواقع من حوله، وصدق اندماجه في قضاياه.

إن تركيا هذه الأمّة الشقيقة: دار الخلافة الإسلامية تتعرّض-والحرب العالمية الثانية تلوّح نذرها في الأفق وهي طرف فيها- إلى حملات مسعورة وأطماع دفينة ممّا يستوجب ممّن يتحرّك من المسلمين في هذه الفترة كابن باديس الذي يتصدّى للكتابة في الموضوع أن يراعي ذلك ويحسب له حسابه ولذلك كتب الشيخ في هذا المقال عن مصطفى كمال وهو يعي كامل الوعي ما يمر به العالم الإسلامي في هذه الآونة في ظروف استثنائية خطيرة ممّا يقتضي أكثر من أيّ وقت مضى بذل الجهد لرص الصفوف ولمّ الشمل والتغاضي عن الهفوات.

إن مصطفى كمال أصبح في حكم التاريخ، وهو وإن كان قد وقع في بعض الأخطاء تجاه أمّته فيحسن في هذه الظروف الراهنة ألاّ تفتح هذه الصفحة وأن تطوى إلى حين، فإن نبش القبور وتعدّد هفوات الأموات بالإضافة إلى أن ذلك منهي عنه شرعًا فإنه لا ينفعنا في شيء بقدر ما يضرنا بما يثير من أحاسيس التشفي فينا والشماتة بنا والتجرؤ علينا، وإن أحسن من ذلك أن نتوجّه بأكف الضراعة إلى الله راجين منه أن يترل شآبيب الرحمة والمغفرة على موتانا وأن يسكنهم فسيح جنانه، إنه غفور رحيم.

---

1. انظر ابن باديس حياته وآثاره:216/4.

وقد كان المقال بهذه الصورة ترحمًا على الفقيد وتعزية للأمّة التركية الشقيقة، أكثر من أن يكون شيئًا آخر «إلى تركيا العزيزة نرفع تعازي الجزائر كلّها مشاركين لها في مصابها راجين لها الخلف الصالح من أبنائها ومزيد التقدم في حاضرها ومستقبلها»[1] ويتضح هذا الدافع نفسه الذي دفع الكاتب إلى هذا الموقف في عمل شعري كان عميد شعراء الجزائر في العصر الحاضر (محمد العيد آل خليفة) قد نظّمه بهذه المناسبة نفسها واستهدف به الغاية المزدوجة ذاتها التي قصد إليها الإمام بعمله السابق (الترحم والتعزية) في وقت واحد وليس في العملين المقال أو القصيدة شيء من معنى الإشادة بالغازي.

وممّا يؤكّد هذا الذي نذكره من أن ابن باديس ومحمد العيد لم يرميَا في عمليهما -أكثر ممّا ألمعنا إليه من معاني التعزية والمواساة- إلحاحهما الاثنان على معنى هذه الجملة (أعزّي تركيا)، فقد كرّرها محمد العيد ثلاث مرات على رأس ثلاث أبيات متواليات:

أعزي تركيا في مس ... تخف بالردى غازي
أعزي تركيـــا في قا ... ئد للحرب نهـــــاز
أعزي تركيـــا فيـــه ... وأرثيه بـــإيجـــــاز[2]

وممّا يزيد في ترجيح هذا التأويل ويؤكد أن الشعور به كان سائدًا لدى معظم المصلحين، أن العملين منشوران في جزء واحد من الشهاب[3] ويمكن أن يكون للزمن مفعوله في تكييف نظرة الشيخ إلى الموضوع، فالمدة التي تفصل بين تصرفات الكماليين في العشرينات، وبين المرحلة التي شهدت ميلاد مقاله في أواخر الثلاثينات، قد يكون لذلك دوره، في إتاحة إمكانية

---

1. انظر آثار الإمام:125/3.
2. انظر ديوانه: ص470.
3. انظر الشهاب: 14/7 (رمضان 1357هـ/نوفمبر 1938م).

التأمل في مواقف الكماليين والتعمق في تحليل الدوافع التي دفعتهم إلى ما قاموا به من مبادرات، ممّا يمكن أن يكون ذلك من بين العوامل التي أوصلت الشيخ إلى إدراك بعض الحقائق، وتصحيح بعض النظرات.

سادسا : الخلاصة

يمكن القول في نهاية هذه الدراسة إن الإمام ابن باديس لم يكن يرغب في أن يعود إلى الوراء في هذه الإشكالية، فيتطرق إلى ماضي الكماليين، وإنّما رأى أنه من الحكمة وسداد الرأي، أن يحصر اهتماماته في هذا المقال في مجريات الحاضر والنهوض به ومعالجة قضاياه، ممّا يدل دلالة واضحة على حكمته وحنكته السياسية وإذا بدَا من خلال بعض هذه المواقف أن حقيقة (أتاتورك) قد غابت عن بعض الجزائريين في بداية الأمر، لإعجابهم بمواقفه الأولى في التصدي لأعداء الإسلام، فإن هذه الحقيقة قد اختفت عن أعين كثير ممّن كانوا أقرب منهم إلى ميدان مجريات الأحداث ومع ذلك مضوا يدبجون القصائد والمقالات في مدح الرجل والإشادة به، كما يبدو ذلك في بعض أعمال الشاعر (أحمد شوقي) قبل إقدامه على تغيير موقفه منه بعد إلغائه الخلافة[1].

ونخلص بعد إلى القول، بأن ابن باديس قد انتهى إلى ما انتهى إليه من آراء ومواقف في الكماليين، نتيجة وقوعه تحت مؤثرات عديدة من أهمها:

1. تمثله لقيام الدِّين الإسلامي الحنيف الذي ينهى عن نبش القبور، ويحض على ذكر الثاوين فيها بالخير والتزود لهم بالرحمة والمغفرة، ممّا جعله يغض الطرف –وهو في مقام التعزية– عن الحديث عن هفوات الراحلين وأخطائهم.

---

1. انظر قصيدته (خلافة الإسلام) "الشوقيات" :105/1- المصدر السابق.

2. عمق تأثره بهذا المصاب الجلل الذي نزل بالأمة التركية الشقيقة، وصدق المشاعر بمواساته إياها به، فكان من ذلك ما دفعه إلى التغاضي عما كان من الفقيد من مواقف مؤسفة إزاء الإسلام والمسلمين.

3. وعيه العميق بالأخطار المحدقة بالأمة الإسلامية في آواخر الثلاثينات من كل جانب والأطماع التي تتربص بنا في أكثر من منعرج، ممّا يستلزم الحرص والتركيز حول ما يجمع بين المسلمين ويقوي موقفهم من عوامل الاتحاد والتكاتف، ويدعو في الوقت ذاته إلى التناسي عمّا قد يكون بينهم من أسباب الفرقة والاختلاف، ويؤثر سلبًا على ما يربطهم من أواصر التعاطف والتعاضد. ويمكن أن يجد الباحث في هذه العوامل، أو في بعضها ما يفسر به الوجهة التي خلص إليها الشيخ في موقفه الذي رأينا من الكماليين.